٢ ـ الحديث الثاني

« أركان الدين »

عن عمر «رضي»أيضاً، قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذْ طَلَعَ علينا رجلٌ شديدُ بياض الثياب، شديدُ سواد الشَعَر، لا يُرى عليه أثَر السَفَر، ولا يعرفُه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند رُكبَتَيْهِ إلى ركبتيه، ووضع كفَّيْه على فَخِذيهْ، وقال: يا محمد، أخبرني عن الاسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الاسلامُ أنْ تَشهدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاةَ، وتُؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ وتَحجُ البيت إنِ استطعتَ إليه سبيلاً، قال: صَدَقْتَ، فعجبنا له؛ يسألهُ ويُصَدّقهُ، قال: فأخبرني عن الايمان ؟ قال: أنْ تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكتبِه ورُسُلِه واليوم الآخر، وتُؤْمنَ بالقَدَر خيرِهِ وشرِهِ، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الاحسان؟ قال: أنْ تعبدَ اللهَ كأنك تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنه يراكَ قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: أنْ تلدَ الأمةُ رَبتَها، وأنْ ترى الحُفاةَ العُراةَ العالةَ رِعاء الشاء يتطاولون في البُنيان، ثم انطلق، فلبْثتُ مليّاً، ثمْ قال: يا عمر، اتدري من السائل؟! قلت : الله ورسولُه اعلمُ، قال: فإنه جبريلُ أتاكم يعلمُكم دينكم» رواه مسلم.

٢ ـ مكانة الحديث عند العلماء :

* قال القاضي عياض: هذا الحديث اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة. . . حتى ان علوم الشريعة كلها راجعة إليه[1].

---

(١) شرح مسلم ج١ ص ١٥٨.

* وقال النووي: : وعلى هذا الحديث واقسامه الثلاثة الفنا كتابنا: «المقاصد فيما يلزم الانسان»؛ اذ لا يشذ شيء من الواجبات والسنن والمحظورات والمكروهات عن اقسامه الثلاثة[1]

* وقال: اعلم ان هذا الحديث يجمع انواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللطائف، بل هو اصل الاسلام[2]

* وقال ابن القيم: قد جمع النبي ﷺ اعمال القلب وفروعها كلها في كلمة وهي قوله في الاحسان: ان تعبد الله. . .»، فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من اعمال القلوب تجد هذا أصله ومنبعه[3]

* وما يمتاز به هذا الحديث: أنه جمع الاسلام من جميع اطرافه القاصية والدانية، الظاهرة والباطنة، حيث اشتمل على اركان الاسلام، واركان الاحسان، وأعظم علوم الساعة، تمَّ تعليم ذلك كله في صورة مهيبة فريدة، يمثّل فيها جبريل عليه السلام، دور المعلم والمتعلم في وقت واحد.

* وقال الشرنوبي: لو لم يكن في هذه الاربعين الا هذا الحديث لكان كافياً باحكام الشريعة واسرار الطريقة والحقيقة[4]

٣ ـ شرح الحديث :

أ ـ مفرداته:

* بينما : حينما * ذات يوم: مدة من يوم، وهي بمعنى: في يوم من الأيام.

* رجل : ملك على صورة رجل * شديد سواد الشعر: شعر اللحية.

* تقيم الصلاة: تداوم عليها، وتؤديها بكامل شروطها وأوصافها.

* تؤتي الزكاة: تعطيها لمستحقيها[5] * السبيل: الطريق، تؤنث وتذكر.

* فعجنا له: منه، اي من تصرفه الخارج عن المألوف «يسأله ويصدّقه»، والقائل عمر بن الخطاب.

---

(١) السابق ص ١٥٨. (٢) السابق ص ١٦٠ ج١.

(٣) اعلام الموقعين. ج٤ ص ٢٠٣.

(٤) شرح الاربعين ص ١٢.

(٥) انظر اية ٦٠ من سورة التوبة.

* تؤمن بالله: تصدّق به * الملائكة : مخلوقات من نور، مخلوقة لتنفيذ اوامر الله وعبادته، وهي لا تُرى، ولا تأكل ولا تشرب ولا تتناكح، ولها قدرة على التشكل في صور مختلفة بتقدير الله تعالى، وهي واسطة بين الله وعباده، وبخاصة الرسل، وأعظمهم جبريل عليه السلام؛ كما قال في الاتحافات: قد تظاهرت الدلائل على عظيم مرتبته[1].

* الكتب عددها «١٠٤»، وأشهرها، والمعروف منها أربعة: الزّبور نزل على سيدنا داود عليه السلام، والتوراة، على سيدنا موسى عليه السلام، والانجيل على سيدنا عيسى عليه السلام، ثم القرآن الكريم، وهو آخرها، ويمتاز عنها بأنه المعجزة الخالدة، والرسالة العامة، وعلينا ان نؤمن بجميع الكتب بمعنى انها في اصلها منزلة من الله، ولكنها حرفت ولذا نزل القرآن تصحيحاً واكمالاً للوحي.

* الرسل: افراد من البشر يمتازون بكمال عقولهم واخلاقهم، واستعداداتهم لتلقي الرسالة الالهية ثم تبليغها بامانة واخلاص وكفاءة، وعددهم كثير، غير ان المذكور منهم في القرآن «٢٥ رسولا»، وكل رسول نبي ولا عكس.

والراجح في الفرق بين النبي والرسول: ان الرسول هو من انزل عليه شريعة مستقله وأمر بتبليغها، والنبي يوحى اليه، ولكن يعمل بشريعة غيره من الرسل، ويعمل على تجديدها. وبعثها، **واولو العزم** من الرسل خمسة، وهم نوح، وابراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام؛ فقد تحملوا من الاذى واجتهدوا في تبليغ الرسالة مالم يبلغه غيرهم، ومحمد ﷺ خاتمهم، وقد انقطعت به النبوات والرسالات، وكل من ادعى النبوة بعده فهو كاذب مرتد.

* اليوم الآخر: يوم القيامة، وما يشتمل عليه: من الحشر والنشر والصراط والميزان والحساب والحوض والجنة والنار. . .

* القدر: تعلق ارادة الله بالاشياء عند ايجادها، بينما القضاء هو التعلق بها ازلاً، قبل ايجادها.[2]

---

(١) الاتحافات السنية ص ٢٢٧.

(٢) وهناك تعريفات اخرى، منها ان القضاء هو الامور التي تقع على الانسان رغماً عنه، والقدر هو خواص الأشياء ـ راجع للمزيد: رسالة: في القضاء والقدر للدكتور عبد العزيز الخياط/ واخرى للشيخ محمد متولي شعراوي.

* الاحسان **لغة**: الاتقان والاخلاص، وايقاع الشيء على أحسن واكمل اوضاعه واوصافه. **وشرعاً**: ما في الحديث، اي: ان تعبد الله كأنك تراه... الخ.

* عن الساعة: عن وقت قيام الساعة، والساعة هي القيامه، سميت بذلك، لانها عند الله كساعة عند الخلق ـ والمراد بالساعة هنا: مدة زمنية قصيرة.

* أماراتها: جمع أمارة، والمقصود: علاماتها الصغرى والوسطى، لانه لم يذكر في الحديث من الكبرى شيئاً، وسميت في القرآن «اشراط»؛ فقد جاء اشراطها»[1] وللساعة علامات صغرى ووسطى وكبرى.[2]

* الأمة: المملوكة، وكأن الحديث يشير بالذات الى فترة الحكم العباسي، إذ كثرت الاماء والتسري بهن.

* ربتها: سيدتها، وفي رواية: ربها: سيدها.

* حفاة: جمع حاف: من لانعل له * عراة: جمع عارٍ من الثياب، وهما كناية عن شدة الفقر وعن البداوة والتدنّي المعيشي.

* عالة: جمع عائل، وهو الفقير «ووجدك عائلاً فأغنى»، يقال: عال الرجل: بعيل عَيلةَ: افتقر «وان خفتم عَيْلةً فسوف يغنيكم الله من فضله»[3]

* رِعاء الشاء: جمع راعٍ، ويجمع على رُعاة، والشاء جمع شاة، وتجمع على شياه وهي هنا شاملة للماعز والضأن، ومثلها كلمة غنم.

* الايمان: لغة، التصديق، وشرعاً: تصديق القلب بالقضايا المذكورة في الحديث، واقرار اللسان بها «اي النطق بالشهادتين مع فعل الجوارح على اعتبار دخول العمل في مفهوم الايمان»

* الاسلام: لغة، الخضوع والاستسلام، وشرعاً: النطق بالشهادتين وعمل الجوارح وبخاصة الاركان * ملياً: وقتاً طويلاً قيل ٣ أيام كما ورد في رواية اخرى»[4]

---

(١) سورة محمد الآية ١٨.

(٢) راجع كتب العقيدة، وبخاصة ما يتعلق منها باشراط الساعة مثل: الاشاعة لا شراط الساعة للبرزنجي.

(٣) سورة التوبة / آية ٢٨.

(٤) شرح مسلم ج١ ص ١٦٠

ب ـ التراكيب :

* حتى جلس : استأذن في الدنوّ، ودنا حتى جلس، مائلاً الى النبي ﷺ، بين يديه ووضع كفيه على فخذيه، وناداه باسمه، ليقوى ظنّ الصحابة انه من جفاة الاعراب، لمزيد التعمية عليهم، أوأن ذلك كان قبل تحريم ندائه باسمه بقوله تعالى: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً. .[1]
* كأنك تراه: بأن تكون في غاية الخشوع حال العبادة، وهذا هو مقام المكاشفة، وما بعده هو مقام المراقبة.
* ما المسؤول باعلم من السائل: اننا في عدم العلم بالساعة سواء، لانها من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه « اي انفرد».
* ثم قال يا عمر: اخبره بذلك، بعد ان اخبر الصحابه في نفس المجلس، وبعد قيام عمر، ثم لما لقيه بعد ذلك ـ قيل بعد ثلاثة ايام ـ قال له ذلك.
* الله ورسوله اعلم: لم يقل: اعلما، لان افعل التفضيل لا يثنى ولا يجمع.
* يعلمكم دينكم : قواعده الكلية، بواسطة سؤاله.
* فان لم تكن تراه فانه يراك: ١ ـ قيل هو تعليل للأول، فان العبد اذا أمر بمراقبة الله في العبادة، واستحضار قربه عَبَدَه حتى كأن العبد يراه؛ فانه قد يشق ذلك عليه، فيستعين عليه بايمانه بان الله يراه ويعلم احواله فاذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال الى المقام الثاني ٢) وقيل هو إشارة الى ان من شق عليه ان يعبد الله كأنه يراه، فليعبد الله على انّ الله يراه وفيه اشارة الى مقامي الاخلاص والمشاهدة «او كما سبق المكاشفة والمراقبة».

جـ ـ المعنى الاجمالي :

لقد تنوعت اساليب البيان القرآنية والحديثية، وفي هذا الحديث جاء الاسلوب غنياً بوسائل الاثارة والتشويق، ليشتد الانتباه والحرص على التلقي الصادق والتعلُّم

(١) سورة النور / آية ٦٣.

الواثق، فيجيء جبريل عليه السلام، على غير عادته في صورة رجل من البادية ولكنه ليس كرجال البادية في ادب الجلوس والاستئذان، وتزداد دهشة الصحابة حينما يجدون انه يسأل عن امور سبق له بها علم، بدليل تصديقه للنبي ﷺ، ثم يسأله عن اهم قواعد الدين واصول الاعتقاد: الاسلام، الايمان، الاحسان، الساعة، ثم عن أماراتها، بعد تقرير أن الساعة ذاتها غيب لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ثم يغيب جبريل عن انظارهم في نفس الشكل الذي به حضر -الابهام والغموض - فيخبرهم الرسول ﷺ بانه جبريل جاء يعلمهم اهم أمور دينهم؛ فيكون هذا من اهم دواعي الاهتمام بمضمون هذا الحديث.

٤ - بعض ما يرشد إليه الحديث :

* الاحسان هو أعلى درجات اليقين والاخلاص، وينبغي للمسلم ان يعمل باستمرار على الترقي في سلم الطاعة، وأعونُ شيء على ذلك مداومة استحضار رقابة الله تعالى.
* العبادة التي تخلو من الخشوع والاخلاص عبادة ميتة.
* اتقان العمل هو من أسمى المطالب في الاسلام.
* التباهي بمظاهر الحياة الدنيا من الامور المذمومة، ومن علامات الساعة. «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد»[1]
* يُستحب للعالم ان يقول: لا أعلم، لما لا يعلم.
* الاحسان كما انه اسمى المطالب وأقصى الغايات في التقرب الى الله تعالى، فإن من ثمراته: صدق الاسلام، وقوة الايمان؛ وللاحسان مظهران؛ ١- دنيوي: يتمثل في اتقان العمل، كما اشار الى ذلك محمد قطب بقوله: الاحسان: ان تحسن الشيء فتجعله حسناً.[2]

٢) ديني، يتمثل في الخشوع التام في العبادة، ودوام المراقبة لله تعالى.

* التأدب مع اهل العلم، وبخاصة في السؤال. فحسن السؤال نصف العلم.

---

(١) حديث نقلاً عن جامع العلوم والحكم ص ٩٤

(٢) قبسات من الرسول ص ٨٤.

* ينبغي للمعلم ان ينوّع طرائقه في التعليم وان يستخدم وسائل الايضاح كلما لزم الأمر، وان يلجأ الى طريقة الحوار والمناقشة والتمثيل، فكلها طرق مثيرة للرغبة، ومحركة للانتباه، ومجددة للنشاط، وكلها طبقت في الحديث.
* العناية بالنظافة: الجسم، والثياب، وحسن الهندام.
* الاهتمام بتحسين العبادة والخشوع فيها يثمر الخشية والتعظيم كما يثمر استقامة السلوك واتقان العمل.[1]

كما جاء في حديث قدسي: انما اتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل على خلقي . . . ورَحِمَ المسكين».[2]

* ينبغي لمن حضر مجلس العلم، اذا علم بأهل المجلس حاجةً الى مسألة، لا يسألون عنها؛ ان يسأل هو عنها ليحصل النفع للجميع.
* ينبغي للعالم ان يرفق بالسائل ويدنيه منه، ليتمكن من سؤاله بغير تهيُّب، كما ينبغي للسائل ان يتأدب في سؤاله.[3]
* المحافظة على النظام والانضباط الكامل من قبل المتعلم، ومراعاة ادب الجلوس والحديث والسؤال ونحو ذلك.

٥ ـ سبب وروده :

هناك رواية اخرى للحديث تنطوي على اشارة لسبب وروده: عن ابي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: سلوني، فهابوه أن يسألوه، فجاء رجل، فجلس عند ركبتيه، فقال: يا رسول الله، ما الاسلام. . مالايمان. . ماالاحسان؟ قال: ان تخشى الله كأنك تراه، وفي آخر هذه الرواية، فقال صلى الله عليه وسلم: هذا جبريل اراد أن تعلمّوا «تتعلموا»؛ إذْ لم تسألوا، اي لانكم هبتم من سؤاله[4]؛

---

(١) قال النووي: لو قدرنا ان احدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه لم يترك شيئاً مما يقدر عليه: من الخشوع وحسن السمت والاعتناء بتتميم الصلاة على احسن وجوهها إلا أتى به، شرح مسلم ج١ ص ١٥٨.

(٢) الاتحافات السنية /ص ٣٦.

(٣) شرح مسلم ج١ ص ١٦٠.

(٤) السابق ج١ ص ١٦٥. حذفت تعريف الاسلام والايمان للمطابقة مع الرواية الاصلية، وذكرت تعريف الاحسان لوجود فرق بينها هنا وبين الرواية الأصلية «اي تعبد».

فظهر ارتباط هذا الحديث بالحديث التاسع. الذي يتضمن نهيهم عن كثرة مساءلة النبي ﷺ: ذروني ما تركتكم . .»، فانما اهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم. . / وفي الموافقات: وقد كان اصحاب رسول الله قد وُعظوا في كثرة السؤال، حتى امتنعوا منه، وكانوا يحبون أن يجيء الاعراب فيسألوا، ليتعلموا. . ولقد أمسكوا عن السؤال حتى جاء جبريل. . فسأل[1]

٦ ـ بعض تطبيقات الحديث:

* قال الامام البغوي «رحمه الله» في حديث سؤال جبريل وجوابه: جعل النبي ﷺ الاسلام اسماً لما ظهر من الاعمال، والايمان اسماً لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لان الاعمال ليست من الايمان، وان التصديق بالقلب ليس من الاسلام؛ بل ذلك تفصيل لشيء واحد، يجمعه كلمة «الدين»[2]
* قال محيي الدين بن عربي في وصاياه: وعليك اذا عملت عملاً مشروعاً ان تحسّنه، فإنه من حسن عمله بلغ أمله، وحسن العمل: ان تعمله كما شرع الله لك ان تعمله، وان ترى الله في عملك اياه، فإن رسول الله ﷺ فسر الاحسان بما ذكرناه[3].
* قسم الدهلوي العلم الى قسمين؛ الاول: علم الشرائع، والثاني: علم الاحسان، وعرف الأول بانه: الذي يبحث عن التكاليف الشرعية من جهة الزاميتها وعرف علم الاحسان بانه: الذي يهتم بالتكاليف الشرعية من جهة ايصالها الى اغراضها ومن جهة تهذيب النفوس بها[4].
* ان روح الصلاة هي الحضور مع الله، والاستشراف للجبروت، وتذكر جلال الله، مع تعظيم ممزوج بمحبة وطمأنينة، وإليه الاشارة في الحديث: ان تعبد

---

(١) الموافقات ج٤ ص ٢١٤.
(٢) شرح مسلم ج١ ص ١٤٥.
(٣) الوصايا الاكبرية ص ١١١.
(٤) حجة الله البالغة ج٢ ص٥٦٠.

الله . . الخ.[1]

* التفكر على انواع، ١) تفكر في ذات الله، وهو منهي عنه ٢) تفكر في صفاته، وهو المعبَّر عنه عند اهل السلوك: بالمراقبة، والاصل فيه قوله ﷺ: ان تعبد الله . . . . الحديث/ ٣ ـ التفكر في افعاله ٤ ـ التفكر في ايامه ٥ـ التفكر في الموت وما بعده[2]

* اعلم ان للاحسان ثمرات تحصل بعد حصوله، وهي مقامات واحوال القلب والعقل، وأصل المقامات والاحوال المتعلقة بالعقل هو اليقين، ويتفرع منه: التوحيد والاخلاص والتوكل. . ومن أحواله المتعلقة بالعقل: التجليّ، وهو على ثلاثة احوال: تجلي ذات، وهي المكاشفة، وتجلي صفات الذات وهي مواضع النور، وتجلي حكم الذات، وهي الآخرة وما فيها، فمن المكاشفة غَلَبة اليقين، حتى يصير كأنه يراه، . ويغفل عما عداه[3].

* مَنْ عَبَد اللهَ على استحضار قربه تعالى، ومشاهدته بقلبه، او على استحضار قرب الله منه، واطلاعه عليه؛ فقد حسن إسلامه، ويلزم من ذلك: ان يترك كل مالا يعنيه في الاسلام، ويشتغل بما يعنيه[4].

* قال ابن تيمية «رحمه الله تعالى»: كل من ادعى انه رأى ربه بعينيه قبل الموت فدعواه باطلة باتفاق اهل السنة والجماعة، كما ورد في حديث صحيح، ولكن الذي يقع لاهل حقائق الايمان: من المعرفة بالله ويقين القلوب ومشاهدتها وتجلياتها هو على مراتب كثيرة، قال ﷺ: ان تعبد الله . . . الخ.[5]

* اختلاف علماء المسلمين في مسمى الايمان والاسلام، وفي حقيقة القدر، فتكونت بذلك وغيره الفرق الاسلامية المعروفة، كالمرجئة، والجبرية، والمعتزلة، والأشاعرة والماتريدية، والشيعه، والخوارج. . الخ[6]، فمنهم وهم الجمهور من ادخل الاسلام «العمل» في مفهوم الايمان.[7]، ومنهم من اكتفى في الايمان وتحقق

---

(١) السابق ص ٥٦١.

(٢) السابق ص ٥٩١.

(٣) السابق ص ٦٠٦ وص ٦١٣ وص ٦١٩.

(٤) لاحظ ارتباطه بالحديث الثاني عشر، فهو بمثابة الاصل له.

(٥) رسالة الوصية الكبرى ـ ضمن مجموع الرسائل الكبرى ص ٢٩٠.

(٦) راجع الملل والنحل.

(٧) راجع ما نقله النووي في شرح مسلم عن البغوى.

ماهيته بالتصديق الجازم، وقد اختلفوا تبعاً لذلك في حكم مرتكب الكبيرة وتسميته، وفيما يصير به المرء كافراً، وستجد بيان ذلك واضحاً في ثنايا شرح هذه الاحاديث ان شاء الله تعالى.

* يتمسك بالحديث اهل التصوف، القائلون بالجمع بين الحقيقة والشريعة، والقائلون بمقامات الشهود والفناء، والمكاشفة.

* من تأمل الحديث، وجد ان جميع العلوم والمعارف، ترجع من قريب او بعيد اليه، وان جميع العلماء من فرق هذه الامة لاتخرج علومهم عنه، فمنها ما يدخل تحت علوم الاسلام، كعلوم الفقه، وما إليه، والعبادات، والاخلاق، والذين يتكلمون على اصول الديانات فكلامهم يدخل تحت الايمان، والذين يتكلمون على علم المعارف والمعاملات، يستندون الى مقام الاحسان[1]

* **ومن التطبيقات التربوية للحديث** : ان الحديث، قد حدد اساسيات الدين الاسلامي العظمى، ورسم الأطر العملية والنظرية، التصورية والتصديقية، العقدية والتشريعية والسلوكية، حتى يمكن اعتباره بمثابة الهيكل التأسيسي للدين كله، او المخطط الذي يحدد المعالم الرئيسية للبناء الاسلامي الشامخ عبر العصور، كما انه يحمل في طياته دلالات وعبراً تربوية ذات معنى جدير بالملاحظة، فليس هناك حديث نبوي تم تعليمه للنبي ﷺ ولاصحابه بالشكل الذي تم به هذا الحديث، فهو لذلك فريد في اسلوبه، كما انه فريد في مضمونه، فجبريل عليه السلام لم ينزل على سيدنا محمد ﷺ، ويحسُّ به الصحابة (رضي) الا بالقرآن الكريم، والذي نعلمه عن الحديث انه يوحى به الى النبي ﷺ؛ بان يلقى في «روعه»، ولكن مع هذا الحديث يجيء جبريل وبشكل مثير للاهتمام؛ فهو يلبس ثوباً نظيفاً وجميلاً وابيض، وله لحية سوداء جميلة، وبامكانك ان تتصور الظلال التي ترسمها كلمات عمر (رضي): شديد سواد الشعر، شديد بياض الثياب، فليس

---

(١) راجع جامع العلوم/ ص ٨٥، ٨٦. ، وقال ابن القيم في اعلام الموقعين ج٤ ص ٢٠٣ : وقد جمع ﷺ اصول اعمال القلب وفروعها كلها في كلمة، وهي قوله في الاحسان: ان تعبد الله. . .» فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من اعمال القلوب تجد هذا اصله ومنبعه؛ وقال ابن العربي في كتاب الفناء/ من رسائله: وهذا المنزل الذي تكلمنا عليه: وهو منزل الكشف والعلم اللدني. . له مرتبة الاحسان الذي يراك به لا الاحسان الذي تراه به واشار جبريل لأهل الاشارات (المعارف الصوفية) بقوله: فان لم تكن تراه: اي رؤيته لا تكون الا بفنائك عنك» / الرسالة الاولى ص٩.

هنـاك في صفـة الـرجـال أبهى من هذا المنظـر، ومـع جمال المنظر جمال المخبر وسموّ الذوق والادب، كما يظهر من طريقته في الجلوس بين يدي النبي ﷺ ، فهو أعرابي لانه آتٍ من البادية، ولأنه مجهول، ولانه ينادي النبي ﷺ كما يناديه الاعراب: يا محمد!، ولكنه مع ذلك بعيد عن طبع الاعراب واخلاقهم: في ادب جلوسه، وفي تصـديقـه للنبي، وفي دقـة توجيـه الأسئلة، ومن عجيب ما قرأتـه عن المتصوفة: ان النبي (ص) لم يعرف جبريل وهو يسأله، فقد قال ﷺ: ما خفي عليّ جبريل الا في هذه المرة» /الابريز ص ١١٠.

وللمـــرء ان يتســاءل: الم يكن بالامكـان ان يحدّث النبي ﷺ أصحـابـه ابتـداء بمضمون هذا الحديث، شأنه في سائر أحاديثه، وان يوجّه اسئلته هذه للصحابة المـوجـودين؟ ثم ما هوالغـريب في مضمـون الحـديث، او ليس الاسـلام قد عرف عندهم على انفراد؟ او ليس هناك في الايمان وتحديد أركانه آيات واحاديث كثيرة؟! وقل مثل ذلك في الاحسان، اذاً فلماذا هذا الاسلوب؟! ليس من جواب فيما ارى:

الا انه التنويع في طرق التعليم، واللجوء الى استخدام وسائل الايضاح، مما يؤكد حقيقة تضاف الى حقائق اخرى كثيرة، وهي: ان كثيراً من الحقائق التربوية التي انتهت اليهـا كثيرٌ من التجـارب والابحـاث والتطبيقات في العصر الحديث لم تكن غريبة عن امتنا منذ بواكير نهضتها، طبقت في القرآن وفي السنة ثم طوّرت فيما بعد، حتى كانت بمثابة الاسس الأولى لذلك الصرح العظيم من الابحاث والابتكارات التربوية في جميع العصور الاسلامية[1]

ومن الاشارات التربوية في الحديث: الانتقال من المعلوم الى المجهول، حيث ان الايمان اخفى من الاسلام، والاحسان اخفى من الايمان، ثم الساعة اخفى من الجميـع. ومنهـا: الانتقـال من المحسـوس الى المعقـول، ومبـدأ التدرج في التعليم والتعلم، حيث يبدأ بتعلم الحقائق البسيطة، ثم ينتقل الى الاكثر تجريداً وغموضاً. ومنها: مراعاة الفروق الفردية؛ فان لم تكن تراه فانه يراك، اي اذا لم تسمح لك

(١) هنـاك كتب تربـويـة اسـلامـيـة خاصـة بالمـوضـوعـات التربوية، كما ان هناك فصولاً في كتب أخرى، وسأصدر ان شاء الله بعد هذا الشرح كتاباً مستوفياً لهذا الموضوع تحت عنوان المعجم التربوي على هامش القرآن الكريم ـ او تأملات وملاحظات تربوية من القرآن الكريم.

استعداداتك ان ترقى الى درجة المشاهدة «المكاشفة»، فلا أقل من ان تصل الى مقام المراقبة.

ومنها: أن يكون الحوارمعداً ومنظماً بشكل مسبق.

ومنها: بيان أهمية طريقة الحوار والمناقشة والتمثيل، الى غير ذلك من المبادىء والاشارات الكثيرة التي توحي بان التعليم النبوي او دعوات الاصلاح ليست وعظاً مجرداً، ولا تقريرات جامدة خالية من الاعتبارات النفسية للمتعلم والمدعو، وانما هي تعليم تربوي متصف بأعلى مؤهلات وعناصر العمل التربوي الناجح.

وفي كتابه «تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية» عَدّد الاستاذ ماجد عرسان المبادىء التي اشتمل عليها مفهوم التعلم منذ القرن الأول، وهي:

١ ـ استمرار التعلم. ٢ ـ التشويق. ٣ ـ التدرج. ٤ـ المزج بين القاعدة النظرية والتطبيق العملي.

٥ ـ التعزيز ٦ـ مراعاة الفروق والاستعدادات ٧ـ الصحبة.[1]

وانت تستطيع ان ترى هذه المبادىء واضحة في الحديث، كما بيّنت من قبل، اما الصحبة، فنفهمها من مواضع في الحديث: ١ـ بينما نحن جلوس عند رسول الله٢ـ من ظهور جبريل وجلوسه بين يديه ﷺ، وقريباً جداً منه. ٣ ـ من قوله صلى الله عليه وسلم لعمر: فلبثت مليا، ثم قال: ياعمر، اتدري من السائل، فعمر قام من المجلس وانشغل قبل ان يعرف من السائل، ولكن الرسول ﷺ لا ينسى ان يبين له ذلك في اقرب فرصة يلقاه فيها، واما التعزيز فمما ذكرت لك من ان معاني الحديث ليست جديدة على الصحابة.

ومن التطبيقات التربوية كذلك ما اشار اليه الاستاذ ماجد في الحديث بقوله: ان القرآن والسنة قد حدّدا للنفس ثلاث مراتب يتدرج الفرد خلالها حتى يبلغ السلوك العاطفي والعقلي والعملي منتهاه، المرغوب به، وهي: مرتبة الاسلام، وتستهدف: تعديل السلوك الظاهر، ثم مرتبة الايمان حيث يتدعم السلوك بالايمان، ثم مرتبة الاحسان، حيث تتناسق مهارات التفكير مع تطبيقات الجوارح وانفعالات الشعور، تتضافر جميعها لاخلاص العبوديّة لله، واصابة الحق في كل ميدان من ميادين العبادة

---

(١) السابق ص٧١ـ٧٦

او العمل. . الخ[1] فهو في توضيحه قد اعتمد على سياق الحديث فقط، ذلك ان المسلك المشهور في القرآن والسنة: انما هو البدء بالايمان، كما ان هذا هو المسلك الطبيعي؛ اذ ان التصور والتصديق سابقان على العمل في الوجود، وانما حصلت المغايرة في الحديث لمقتضيات تربوية بيانية كما سبق.

* استشهد به احمد بن حنبل رحمه الله على ان ام الولد لاتباع[2]

* خطب عروة بن الزبير الى ابن عمر ابنته، وهما في الطواف، فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك، فاعتذر اليه قائلاً: كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا[3]. ينظر الى قوله: ان تعبد الله كانك تراه. .

* شرح محمد قطب جملة: تعبد الله كانك تراه في خمس عشرة صفحة، واليك بعض ما قاله بتصرف: تعبير عجيب يحمل في بساطته حقيقة هائلة؛ القاعدة الكبرى التي يقيم عليها الاسلام بناءه كله: هي ان تعبد الله. . نظمه كلها، وتشريعاته وتوجيهاته، وحين تتوجه اليه بنفسك جميعاً، ظاهرها وباطنها، وحين تتوجه وفي نفسك شعور التقوى الخاشعة والرهبة العميقة، فلا شك انك ستنظف نفسك. . . وحين تنظف نفسك، وتحاسبها على كل صغيرة وكبيرة. . حينئذ يستقيم الامر كله في هذه الحياة. . .

وحين كان المسلمون الاوائل يعبدون الله كانهم يرونه كانت تلك الامة الفريدة في التاريخ[4]؛ كان فيها رجال ونساء يلحّون على إقامة الحد عليهم لتطهيرهم، وكان فيها رجال يتركون ويهجرون كل عزيز في سبيل الله من زوجة أو وطن أو عشيرة أو قريب، وكان فيها من اذا قرأوا القرآن تنزلت لقراءتهم الملائكة، وكان فيها من اذا قطع منه عضو وهو في الصلاة لا يبالي ولا يتألم، وكان فيها من يرى الرأي فينزل الوحي على وفاقه، وكان فيها من يصعق لسماع القرآن الكريم. . الخ.

* قال ابن جزيّ: من المأمورات المتعلقة بالقلب: المراقبة، وهي معرفة العبد اطلاع الله عليه على الدوام، فيثمر ذلك: الحياء والهيبة والتقوى[5].

---

(١) السابق ص٤٢.

(٢) الجارية اذا ولدت من سيدها، تدعى ام ولد ولا يجوز بيعها بعد ذلك ـ انظر احكامها في كتب الفقه.

(٣) جامع العلوم ص٨٠.

(٤) قبسات من الرسول ص ٨٤ وما بعدها. (٥) القوانين ص ٢٨٤.

* وعرف المشاهدة بقوله: هي دوام النظر بالقلب الى الله، واستغراقه في صفاته وافعاله، وذلك مقام الاحسان الذي اشار اليه النبي ﷺ، ثم اشار الى مقام المراقبة بقوله: فان لم تكن تراه . . . الخ [1]

* وفسَّر في مختصر المنهاج قوله تعالى: ﴿ان الله يحول بين المرء وقلبه﴾: أي بمنعه من معرفته ومراقبته [2]

* وقد اورد ابن عطاء الله الاسكندري طائفة من الروائع الحكمية مما يتصل بالحديث، وبخاصة مقام الاحسان فيه، مثل قوله: «انما حجب الحق عنك شدةُ قربه منك»، وقوله: انما احتجب لشدة ظهوره، وخفي عن الابصار لعظم نوره» [3].

* وقال: وصولك الى الله وصولك الى العلم به، وإلا فجلَّ ربنا ان يتصل به شيء او يتصل هو بشيء، وقربك منه ان تكون مشاهداً لقربه [4]، وقال: فرغ قلبك من الاغيار تملأه بالمعارف والاسرار.

* اورد ابن القيم قاعدة توضح علاقة الايمان بالاسلام على النحو التالي: الايمان له ظاهر وباطن، وظاهره: قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه: تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وان حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، [5] ولا يجزىء باطن لا ظاهر له، الا اذا تعذر بعجز او اكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهراً ـ مع عدم المانع ـ دليل على فساد الباطن وخلوه عن الايمان، وقوته دليل قوته، فالايمان قلب الاسلام ولبه [6].

* شرح الشيخ عبد الغني النابلسي الاسلام والايمان والاحسان في ٤٠ صفحة من الفتح الرباني [7].

---

(١) السابق ٢٨٤. (٢) ص ١٥٤.

(٣) الحكم العطائية ص ٣٥.

(٤) السابق ص ٤٣، ٤٤، وفيه رد على الحلولية والاتحادية من الصوفية وغيرهم من الوجوديين.

(٥) يشير الى الحديث الثامن «امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا . . فاذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم واموالهم . . . . الحديث.

(٦) الفوائد ص٨٥.

(٧) الفتح الرباني ص ١٤٤ـ١٨٨.

٧ ـ مناقشة:

س١) اعرب بينما حـ١ـ انظر القسم الثاني.

س٢) لماذا اقتصر على العلامتين المذكورتين من علامات الساعة الكثيرة؟

حـ٢ ـ للاعتناء بأمرهما، وتحذيراً للحاضرين وغيرهم منهما.

س٣) ما المقصود بالصفات التي ذكرها كعلامات للساعة ؟ حـ٣ ـ الاشارة الى ان الاسافل يصيرون اصحاب جاه وثراء، او ان اهل البادية واشباههم من اهل الفقر يترقون في البنيان، وتبسط لهم الدنيا حتى يتباهوا في البنيان.

س٤) كيف تلد الأمة ربتها او ربها حـ٤ ـ هذه كناية عن كثرة اتخاذ السراري ـ كما سبق ـ فتلد السرية بنتاً او ابناً من سيدها، والولد بمنزلة ابيه في السيادة عليها، او لأنه كان سبباً في عتقها بموت أبيه فاطلق عليه ذلك مجازاً/ او يكثر جلب الرقيق حتى تجلب البنت فتعتق ثم تجلب الأم فتشتريها البنت وتستخدمها وهي لا تدري، وقد وقع ذلك في التاريخ كثيراً / أو ان الاماء يلدن الملوك وقد وقع هذا أيضاً في العصر العباسي وما بعده، فكانت اشارة إعجازية في الحديث.

س٥) في الحديث اشارة اعجازية للنبي ﷺ، وضح ذلك.

س٦) هناك احاديث تتضمن علامات في معنى هذه العلامات، اذكر امثلة منها:

حـ٦ ـ ١ـ «ان من اشراط الساعة ان توضع الاخيار، وترفع الاشرار»

٢ـ سئل النبي عليه السلام عن الساعة، فقال: اذا وُسِّدَ الامر الى غير اهله فانتظر الساعة».

٣ـ « لا تقوم الساعة حتى يسودَ كلَ قبيلة منافقوها»[1]

س٧) ما الفرق بين الاسلام والايمان حـ ٧ـ أ في الحديث: الاسلام علانية والايمان في القلب ب) كل مؤمن مسلم ولا عكس جـ) اذا ذكر الاسلام مطلقاً شمل الايمان، وكذا اذا ذكر الايمان مطلقاً، فانه يشمل الاسلام، لان العمل داخل في حقيقته عند اهل السنة ـ كما سلف بيانه، اما اذا تعاطفا، فمعناهما عندئذ

---

(١) جامع العلوم/ الطبعة المحققة ج١ ص ٩٠، ٩١، ٩٢.

يختلفـــان: لا تقـولـوا آمنـا، ولكن قولـوا أسلمنـا»، «مسلمات مؤمنـات» «ان المسلمـين والمسلمات، والمؤمنـين والمؤمنـات» [1]، وقـوله ﷺ في دعاء الجنازة: اللهم من احييته منا فأحيه على الاسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الايمان» وذلك لانه عند الموت لا يبقى الا تصديق القلب؛ وقال رجل: يا رسول الله، ما الاســـلام؟ قال: ان يسلم لله قلبـك، وان يسلم المسلمـون من لسـانـك ويدك، قال: فأي الاسلام افضل؟ قال: الايمان.. الخ الحديث [2].

س٨) لماذا لم يذكـــر القضـــاء في الحـــديث حـ٨) لان الايـمان به من لوازم الايـمان بالقدر، لكونه تفصيلاً له. [3]

س٩) ما السر في تقديم الملائكة على سائر الاركان ـ بعد الايمان بالله؟

حـ٩ ـ لان الله أرسل الملك بالكتـاب الى الـرسـول، فراعى هذا الترتيب: الملك الكتاب، الرسول.

س١٠) اذكر بعض ما ورد في أهمية الحديث ....

س١١) قيل التقادير أربعة، فما هي حـ١١ ـ انظر الى شرح الحديث الرابع فهو ألصق به.

س١٢) اذكر ثلاثة من تطبيقات الحديث.

س١٣) اذكر ثلاث فوائد تربوية تؤخذ من الحديث.

س١٤) وضح صلة الاحسان بما قبله من الايمان والاسلام.

س١٥) اذكـر علامتـين من علامـات السـاعـة الصغـرى، وعلامتين من العلامات الكبرى، ثم بين نوع العلامات المذكورة في الحديث «من أي نوع هي ؟».

س١٦) اذكر سبب ورود الحديث بهذه الكيفية: «مجيء جبريل بصورة رجل من البادية»؟.

س١٧) عرف الاسلام والايمان والاحسان، وبين علاقة كل منها بالآخر.

حـ١٧) ١ ـ الاسلام لغة: الاستسلام والانقياد للشيء؛ وفي الشرع: الانقياد للشرع الاسلامي.

---

(١) سورة الحجرات، والتحريم والاحزاب على التتابع.

(٢) الترغيب والترهيب. ج١ ص ١٦٤، عن احمد بن حنبل باسناد صحيح.

(٣) شرح الاربعين للشرنوبي ص١١.

٢ ـ وحقيقة الايمان: التصديق، وضده الجحود والتكذيب، فمن صدَّق بجميع الاوامر والنواهي الالهية من غير تنفيذ فهو مؤمن عاصٍ.

٣ ـ وحقيقة الاحسان: شهود الله والحضور معه في كل شيء، قال الشيخ عبد الغني: اعلم ان الاحسان اعلى مرتبة من الايمان، لانه احسان الايمان، اي اتقانه، فهو صفة من صفات الايمان ومقام من مقاماته[1].

س١٨) ما حكم ايمان المقلد حـ١٨ ـ قد اختلف العلماء فيه، والذي ذهب اليه الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله: صحة ايمان المقلد بشرط ان يكون جازماً من غير تردد، مطابقاً باعتقاده اعتقاد اهل السنة والجماعة[2].

---

(١) الفتح الرباني ص ١٨٩.

(٢) السابق ص ١٨٥.

obeikandl.com